33 - السيدة سمية بنت خياط

الأسرة المباركة

اسمها سمية، والدها يُدعى «خيَّاط»، زوجها ياسر بن عامر، وابنها عمار بن ياسر، ولكن كيف تشكَّلت هذه الأسرة المباركة الطيبة التي قدَّمت للإسلام أغلى التضحيات، واحتملت أقسى صنوف العذاب؟

خرج ياسر بن عامر من بلده اليمن قاصداً مكة مع أخويه الحارث ومالك يبحثون عن أخ رابع فُقِدَ دون أن يعرفوا شيئاً عن مكانه، وعمَّا إذا كان ميتاً أو على قيد الحياة، وفي مكة تحالف ياسر مع أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

روى ابن ماجه عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلاَمَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلاَلٌ، وَالْمِقْدَادُ؛ فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ؛ وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمْ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ وَاتَاهُمْ[1] عَلَى مَا أَرَادُوا إِلا بِلالاً فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[2].

وقد تحدثَّ ابن الأثير في كتابه «أُسْد الغابة» عن سمية، وما نالها من

---

(1) واتاهم: وافقهم.

(2) رواه: ابن ماجه/ كتاب: المقدمة/ باب: فضل سلمان وأبي ذر والمقداد ﷺ/ برقم: (137).

العذاب الشديد، فقال: وكانت من السابقين إلى الإسلام، وكانت ممن يُعذَّب في الله أشد العذاب[1].

لقد أسرفت قريش في تعذيب آل ياسر إلى الحد الذي أثار دهشة جلاَّديهم، كانوا يُخرجون ياسراً وعماراً وسمية أمه في الشمس المحرقة، ويضجعونهم على الرمال الملتهبة ويطلبون منهم الكفر بما جاء به رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا يتحمَّلون العذاب دون أن تفتر لهم عزيمة، أو تلين لهم قناة.

وروى الإمام أحمد عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: دَعَا عُثْمَانُ ﷺ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَقَالَ: أَلا أُحَدِّثُكُمَا عَنْهُ؟ - يَعْنِي: عَمَاراً - أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ آخِذاً بِيَدِي نَتَمَشَّى فِي الْبَطْحَاءِ حَتَّى أَتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، الدَّهْرَ هَكَذَا؟ فَقَالَ لَهُ النبِيُّ ﷺ: «**اصْبِرْ**» ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتُ**»[2].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ عُثْمَانَ ﷺ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «**صَبْراً آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ**»[3].

صلابة إيمانها

ومن المعلوم أن المرأة أضعف من الرجل قوة، وأوهن منه عزيمة، غير أن سمية ﷺ - دحضت هذه المقولة، وبرهنت على بطلانها حين تحدَّت أقوى قريش شكيمةً، وأشدَّها صَلفاً وبطشاً؛ لقد أنزل بها أبو جهل ألوان العذاب، وصنوف القهر لتكفر بدين محمد ﷺ ولكنه لم ينل مبتغاه،

(1) أُسد الغابة لابن الأثير.

(2) رواه: أحمد/ كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ باب: مسند عثمان بن عفان/ برقم: (412)، وفي طبقات ابن سعد (3/ 248).

(3) سير أعلام النبلاء للذهبي (1/ 409، 410).

ولم يحقق مناه؛ وكان أكثر ما يبدي غضبه، ويثير جنونه تلك الابتسامة الساخرة التي تتحدَّى بها جبروته، وتحطُّ بها من كرامته أمام نفسه وأمام الناس، وتُذلُّ بها كبرياءه وغروره.

وتمادت قريش في تعذيب آل ياسر، وأسرفت في نكالها بهم أيَّما إسراف، ولم يلبث ياسر رب الأسرة أن توفِّي تحت وطأة العذاب، وأعطى أبو حذيفة بن المغيرة امرأة ياسر وأم عمار إلى شقي قريش الأكبر أبي جهل، فراح يتسلَّى في إيذائها، ويتحفها كل يوم بلونٍ جديدٍ.

أول شهيدة في الإسلام

وذات يوم أغلظت سمية له القول، فأخذه الغضب كل مأخذ فقتلها، وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: أول شهيد كان في الإسلام استُشهد أم عمار سمية، طعنها أبو جهلٍ بحربةٍ في قلبها[1].

وذهبت سمية ﵂ إلى ربها راضية مرضية، وتحوَّلت من رمضاء مكة ولهيب صحرائها، إلى جنة عرضها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأما قاتلها الشقي فقد قتله الله شر قتلة على يد ابني عفراء، ثم مرَّ به عبد الله بن مسعود وبه رمقٌ فَذَفَّفَهُ[2] ثم احتزَّ رأسه،وحمله إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه ﷺ حمد الله، ثم أمر رسول الله ﷺ بجثث قادة قريش وزعمائها فأُلقيت في قليب بدر.

وبعد استشهاد والدي عمار ﵄ تفرَّغت قريش له، وراحت تصبُّ عليه العذاب صبّاً حتى انهار جَلَدُهُ، وخارت عزيمته فأعطاهم ما يريدون من كلمة الكفر، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ وراح يبكي بين يديه، وهو يخبره

(1) البداية والنهاية لابن كثير (3/ 65).
(2) ذفَّفَهُ: أجهز عليه.

بما صنع، فهدَّأ رسول الله ﷺ من روعه، وتلا عليه قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: 106].

وهكذا سُرِّيَ عن عمار لأن قلبه كان مطمئناً بالإيمان، ولكنه أعطاهم ما أعطاهم بلسانه دون أن يتطرق إليه أدنى شكٌ بصحة ما آمن به، وكفاه فضلاً ما رواه ابن مسعود، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ كَانَ ابْنُ سُمَيَّةَ مَعَ الحَقِّ**»، رحم الله آل ياسر، وعوَّضهم الجنة.